ثم ألاَ ترى أن الله تعالى قدم البنات فى الهبة ، فقال :﴿ يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور (٤٩) ﴾ [الشورى] لماذا ؟ لأنه سبحانه يعلم محبة الناس للذكور :﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم (٥٨) يتوارى من القوم من سوء ما بشر به (٥٩) ﴾ [النحل]

وقوله تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم (٩) ﴾ [لقمان] العزيز الذى لا يغلب ، ولا يستشير أحداً فيما يفعل ﴿ الحكيم (٩) ﴾ [لقمان] أى : حين يعد ، وحين يفى بالوعد .

ثم تنتقل الآيات إلى دليل من أدلة الإيمان الفطرى بوجود الإله :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ(١) بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ (١٠) ﴾

أولاً : ذكر الحق سبحانه آية كونية لم يدَّعها أحد لنفسه من الكفار أو من الملاحدة ، وهى آية موجودة ومُشاهدة ، وبعد أن قال سبحانه أنا خالق السماء والأرض لم يعارضه أحد ، ولم يأتِ مَنْ يعارضه فيقول : بل أنا خالق السماء والأرض .

وسبق أنْ قلنا : إن القضية تسلم لصاحبها ومدعيها إذا لم يَقُمْ لها معارض ، فإن كانت هذه القضية صحيحة ، والحق سبحانه هو

---

(١) ماد يميد : تحرَّك واهتزَّ . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . يقول تعالى : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم .. (١٠) ﴾ [لقمان] لئلا تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

الخالق فقد انتهتْ المسألة ، وإذا كان هناك خالق غيره سبحانه فأين هو ؟ هل درى أن واحداً آخر أخذ منه الخَلْق ، ولماذا لم يعارض ويدافع عن حقِّه ؟ أو أنه لم يَدْرِ بشيء فهو إله (نائم على ودنه) ، وفى كلا الحالين لا يصلح أن يكون إلهاً يُعبد .

لذلك قال تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ (١٨) ﴾ [آل عمران] ، فهذه شهادة الذات للذات ، ولم يعارضها معارض فصَحَّتْ لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وسبق أن مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بجماعة جلسوا فى مجلس فلما انفضَّ مجلسهم وجد صاحب البيت حافظة نقود لا يعرف صاحبها ، فاتصل بمن كانوا فى مجلسه ، وسألهم عنها فلم يقُلْ واحد منهم أنها له ، إلى أن طرق الباب أحدهم وقال : والله لقد نسيت حافظة نقودى هنا ، فلا شكَّ إذن أنها له وهو صاحبها حيث لم يدَّعها واحد آخر منهم .

والحق سبحانه يقول فى إثبات هذه القضية : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء] أى : لذهبوا يبحثون عمَّنْ أخذ منهم الخَلْق والناس ، وأخذ منهم الألوهية .

فإنْ قالوا نحن آلهة لكن فوقنا إله أكبر يردُّ الحق عليهم :﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (١٠) ﴾ [لقمان] حين تدور فى أنحاء الكرة الأرضية من شمالها إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها تجد السماء تظلّك ، ومع سعة السماء لا تجد لها عمداً ترفعها ، وكلمة ﴿ تَرَوْنَهَا (١٠) ﴾ [لقمان] تحمل معنيين : إما هى فعلاً بغير عمد ، أو لها عمد لكن لا نراها ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (١٠) ﴾ [لقمان] يعنى : لا نرى لها

عمداً ، لكن الحقيقة أن لها عمداً لا ترونها بإحساسكم ومقاييسكم .

فإنْ قلت ، فما هذه العمد التى لا نراها ؟ البعض يقول : هى الجاذبية ، وهذا القول مجانب للصواب ، والحق سبحانه يكفينا مؤنة البحث فى هذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ .. وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ (٦٥) ﴾ [الحج]

إذن :لا نملك إلا أنْ نقول إنها ممسوكة بقدرة الله ، ولكى لا نحار فى كيفية ذلك يُقرِّب الله لنا هذه المسألة بمثال مُشاهد لنا ، فالطير يمسكه الله فى جو السماء : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ ..(٧٩) ﴾ [النحل]

وفى موضوع آخر يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ (٤١) ﴾ [فاطر] إذن : فهو سبحانه يمسكها بقانون ، لكن لا نعرفه نحن ولا ندركه .

والسماء فى اللغة : كل مَا علاك فأظلَّك ، فالغيم الذى يعلوك وتراه قريباً منك يُعد من السماء بدليل قول الله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (١٠) ﴾ [لقمان] والماء ينزل من الغيم ، لا من السموات العلا ، والفرق بينهما أن الغيم تراه فى مكان دون آخر ، وتراه مُتقطعاً منفطراً ، أمَّا السماء العليا فهى بشكل واحد ، لا ترى فيها من فطور .

وحين تكلم الحق سبحانه عن الأرض والسماء قال : إنها سبع سماوات ، ولم يقُلْ سبع أراضين ، بل ﴿وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ (١٢) ﴾ [الطلاق] فدلَّ على أن الأرض سبع كالسماء ، وإنْ كانت السماء كل ما أظلَّك ، فالأرض كل ما أقلَّك ، لكن أين هذه الأرَضين السبع ؟

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن السماوات سبع ، وأخبرنا النبى ﷺ أنه مرَّ بها فى رحلة المعراج فقال فى الأولى كذا وكذا ، وفى الثانية كذا وكذا ، وما دامتْ السماء كل ما أظلك ، والأرض كل ما أقلك فالخَلْق

فى السمـاء الأولى مثلاً سـماؤهم السماء الثـانية ، وأرضـهم سـماؤنا الأولى ، وهكذا وهكذا .

ثم يقـول سـبحـانه : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ (١٠) ﴾ [لقمان] أى : الجبال الراسية الثابتة المتصلة بالأرض اتصالاً وثيقاً بحيث لا تتخلخل منهـا ، والعلة فى خَلْق الجـبـال الرواسى على الأرض ﴿ أَن تَمِيـدَ بِكُمْ (١٠) ﴾ [لقمان] أى : تميل وتضطرب بكم ، ولو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبات لما احتاجت إلى ما يثبتها .

إذن : فالأرض متـحركة ، وما خُلقت الجبـال إلا لتثبيتـها وضبط حركتها ، فـدلَّت هذه الآية على صدْق النظرية القائلة بدوران الأرض ، كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (٨٨) ﴾ [النمل]

إذن : فللجبال حـركة مرتبطة بحركـة الأرض ، فإنْ قُلْتَ : ولماذا لا نراها ؟ نقـول : لأن وحدة الـمكان تجعلـك لا تدرك هذه الحركـة ، فالمتحد فى مكان لا تختلف مرائى الأشياء بالنسبة له .

فلو تصوَّرنا أن هذا المسـجد الذى يجمعنا صُـمِّم على هيئة رَحًى تدور بنا ، فـهل نشـعـر بدورانـه ونحن ندور بدورانه ؟ لا نشـعـر ، لمـاذا ؟ لأن مواقـعنا من بعض ثابتـة لا تتـغيـر ، كـذلك موقـعنا من المكان ؛ لذلك لا نشـعر بالحـركة ، لكن نشـعر بالحـركة حين نـقيس متحركـاً بثابت ، فلو فتحنا الباب مثلاً أو الشـباك ورأينا ما هو خارج المسجد ، عندها نشعر أننا نتحرك .

إذن : لا يمكن لمَنْ على الأرض أن يشعر بحركـتها ؛ لأنه يتحرك معهـا ، وما دامت الجبال أوتاداً فى الأرض وهـى ـ أى الجـبال ـ تمر مرَّ الـسحاب فـلا بُدَّ أن الأرض كذلك تمـر وتتحـرك بنفس الحـركة ،

وحركة الجبال ليست ذاتية ، إنما هي تابعة لحركة الأرض ، والحق سبحانه شبَّه حركة الجبال بحركة السحاب ، والسحاب حركته غير ذاتية ، إنما هي تابعة لحركة الرياح .

ثم يذكر الحق سبحانه علة أخرى لخَلْق الجبال : ﴿ وبَثَّ فيها من كُلِّ دابَّةٍ (١٠) ﴾ [لقمان] وسبق أنْ أوضحنا أن الجبال تمثل مخازن للقوت الذى به قوام الحياة للإنسان وللحيوان والذى ينشأ من الزرع ، وبيَّنا أن الطبقة الخارجية للجبال تتفتتْ بعوامل التعرية ، ثم يحملها ماء المطر إلى الوديان فتزيد من خصوبة الأرض بمقدار كل عام ، ومن الجبال أيضاً يتكون الماء فى الأنهار أو فى مسارب الأرض فنخرجه حين الحاجة إليه .

ومن حكمته تعالى أنْ جعل الجبال راسية ثابتة ، وجعلها صلدة وإلا لو كانت هشّة لأذابتها الأمطار وفتتها فى عدة سنوات ، ثم حرمت الأرض من الخصوبة التى تستمدها من الجبال ؛ لذلك يقول الله تعالى : ﴿ وما نُنزِّلُهُ إلاَّ بقدرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر] فمع زيادة السكان تزداد المساحة الخصْبة التى يُكوِّنها الغرْين الذى يتفتت من الجبال عاماً بعد عام .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ قُلْ أئنَّكُمْ لتَكْفُرُونَ بالَّذى خلَقَ الأَرْضَ فى يوْمَيْنِ وتَجْعَلُونَ لَهُ أنداداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وجَعَلَ فيها رواسى من فَوْقِهَا وبارَكَ فيها وقَدَّرَ فيها أقْوَاتَهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت]

فالجبال جعلها الله راسية حتى لا تضطرب بنا الأرض ، وجعلها صلبة لأنها مخزن الخصْب الذى يُمدُّنا بالزرع الذى به قوَام حياتنا .

ومن رحمة الله بالإنسان أنْ جعل فيه ذاتية استبقاء الحياة ، فإن مُنع عنه الطعام أو الشراب تغذَّى من المخزون فى جسمه ، فيأخذ

أولاً من الدهن ، ثم من اللحم ، ثم من العظم ؛ لذلك قلنا : إن العظم هو آخر مخازن القوت في جسم الإنسان ، وفي ضوء ذلك نفهم قول سيدنا زكريا : ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴿٤﴾﴾ [مريم]

يعني : قد بلغتُ آخر مرحلة من مراحل استبقاء الحياة .

فكان من رحمة الله بالخَلْق أنْ جعل حتى شَرَه الإنسان للطعام والشراب رحمة به ، حيث يتحول الزائد عن طاقته وحاجته إلى مخزون في جسمه ، فإذا انقطعتْ به السُّبُل أو تعذَّر عليه الطعام والشراب استمد مما في جسمه .

كذلك من رحمة الله بالإنسان أنْ جعله يصبر على الطعام إلى شهر ، ويصبر على الماء من ثلاثة أيام إلى عشرة بحسب ما في جسمه من مخزون الطعام والشراب ، أما الهواء فلا يصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ؛ لذلك تتجلى رحمته تعالى وحكمته في خَلْقه بألاَّ يُملِّك الهواء لأحد ، فلو ملَكه عدوك لمتَّ قبل أن يرضى عنك .

وقوله : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] بث أي : نشر ، والدابة : كل ما له دبيب على الأرض ، والدبيب بحسب ما يدبّ على الأرض ، وكل ما يمشي على الأرض له دبيب نسمعه في الحيوان الضخم مثلاً ، لكن لا نسمعه في النملة مثلاً ، فهي أيضاً لها دبيب بدليل قولنا : فلان يسمع دبّة النملة ، إذن : لها دبيب على الأرض ، لكن أذن مَنْ التي تستطيع أنْ تسمعه ؟

وقوله تعالى : ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] كل تعني سوراً كلياً يضم كل ما له حركة ودبيب على الأرض ، يعني : كل ما يقال له دابة بداية من النملة أو الفيروسات الآن إلى أكبر حيوان على الأرض . وقوله (من) تتدرج من الصغير إلى الكبير فتدلُّ على الشمول .

ومن هذه الدواب ما أحله الله ومنها ما حرمه ؛ لذلك يقول البعض : ما دام الله حرَّم هذه الحيوانات ، فما الضرورة فى خَلْقها ؟ وهل كل شىء مخلوق يُؤكل ؟

لا ، ليس كل مخلوق من الحيوانات يؤكل ؛ لأن له مهمة أخرى يؤديها .

ولو تأملت ما حُرِّم عليك لوجدته يخدمك فى ناحية أخرى ، فمنه ما يمد الحيوانات التى تأكلها ، ومنه ما فيه خاصية تحتاج إليها فى غير الأكل ، فالثعبان مثلاً لا نرى فيه إلا أنه مخلوق ضار ، لكن ألم نحتَجْ إلى سُمِّه الآن ، ونجعله مَصْلاً نافعاً ؟ ألسنا ننتفع بجلوده ؟ الخ ، فإذا كنا لا نأكله فنحن نستفيد من وجوده فى نواحٍ أخرى .

كذلك الخنزير مثلاً ، البعض يقول : ما دام الله تعالى حرمه ، فلماذا خلقه ؟ سبحان الله ، هل خلق الله كل شىء لتأكله أنت ؟ ليس بالضرورة أنْ تأكل كل شىء ، لأن الله جعل لك طعامك الذى يناسبك ، أتأكل مثلاً البترول ؟ كيف ونحن نرى حتى السيارات والقطارات والطائرات لكل منها وقوده المناسب له ، فالسيارة التى تعمل بالبنزين مثلاً لا تعمل بالسولار .. الخ ، فربك أعطاك قُوتَك كما أعطى لغيرك من المخلوقات أقواتها .

لذلك ؛ إذا نظرت فى غابة لم تمتد إليها يد الإنسان تجد فيها جميع الحيوانات والطيور والدواب والحشرات .. الخ دون أنْ تجد فيها رائحة كريهة أو منظراً مُنفِّراً ، لماذا ؟

لأن الحيوانات يحدث بينها وبين بعضها توازن بيئى ، فالضعيف منها والمريض طعام للقوى ، والخارج من حيوان طعام لحيوان آخر.. وهكذا ، فهى محكومة بالغريزة لا بالعقل والاختيار .

وكل شيء لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير على أدقِّ نظام فلا تجد فيه فساداً أبداً إلا إذا طالتْه يد البشر ، ولك أنْ تذهب إلى إحدى الحدائق أو المتنزهات فى شم النسيم مثلاً لترى ما تتركه يد الإنسان فى الطبيعة .

لكن ، لماذا وُصف الإنسان بهذا الوصف ؟ ولماذا قُرن وجوده بالفساد ؟ نقول : لأنه يتناول الأشياء بغير قانون خالقها ، ولو تناول الأشياء بقانون الخالق عز وجل ما أحدث فى الطبيعة هذا الفساد .

وسبق أنْ بيَّنا أن الإنسان لا قدرةَ له على شيء من مخلوقات الله إلا إذا ذلَّلها الله له ويسَّرها لخدمته ، بدليل أن الولد الصغير يركب الفيل ويسحب الجمل ويُنيخه ويحمله الأثقال فى حين لا قدرةَ لأحدنا على ثعبان صغير ، أو حتى برغوث ، لماذا ؟ لأن الله تعالى ذلَّلَ لنا هذا ، ولم يُذلِّل لنا هذا .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) ﴾ [لقمان] من السماء : أى من جهة العلو ومن ناحية السماء ، وإلا فالمطر لا ينزل من السماء ، إنما من الغمام ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا .. (١٠) ﴾ [لقمان] أى : فى الأرض ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) ﴾ [لقمان] زوج أى : نوع من النبات ، فهى كلمة تدل على مفرد ، لكن معه مثله ، والبعض يظن أنها تعنى اثنين وهذا خطأ ؛ لذلك نقول عن الرجل زوج ، وعن المرأة زوج رغم أنه مفرد ، لكن قُرن بغيره .

وقال تعالى عن التكاثر : ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات] فسمَّى الذكر (زوج) وسمَّى الأنثى (زوج) .

ومثلها كلمة (توأم) فهى تدل على مفرد ، لكن مفرد لم يُولَد

وحده إنما معه غيره ، والبعض يقول (توأم) ويقصد الاثنين ، إنما الصواب أن نقول هما توأمان .

ووصف الحق سبحانه الزوج أى النوع من النبات بأنه ﴿ كَرِيمٍ (١٠) ﴾ [لقمان] لأنه يعطيك بكرم وسخاء ، فالحبة تعطيك سبعمائة حبة ، وهذا عطاء المخلوق لله ، فما بالك بعطاء الخالق عز وجل ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (١١) ﴾

والكلام هنا مُوجَّه للمكابرين وللمعاندين الجاحدين لآيات الله : ﴿ هَٰذَا .. (١١) ﴾ [لقمان] أى : ما سبق ذكْره لكم من خَلْق السماوات بغير عمد ، ومن خَلْق الجبال الرواسى والدواب وإنزال المطر وإحياء النبات .. الخ .

هذا كله ﴿ خَلْقُ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] فلم يدَّعه أحد لنفسه ، وليس لله فيه شريك ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] أى : الذين اتخذتموهم شركاء مع الله ، ماذا خلقوا ؟

وليس لهذا السؤال إجابة عندهم ، حيث لا واقع له يستدلون به ، ولا حتى بالمكابرة ؛ لأن الحق أبلج[1] والباطل لجلج[2] ، لذلك لم

(١) أبلج الحق : ظهر . ويقال : هذا أمر أبلج أى واضح . والبلوج : الإشراق وصبح أبلج بيِّن البلج أى مشرق مضىء . وكذلك الحق إذا اتضح . [لسان العرب - مادة : بلج] .

(٢) اللجلج : المختلط الذى ليس بمستقيم . [لسان العرب - مادة لجج] .

نسمع لهم صوتاً ولم يجرؤ واحد منهم مثلاً على أن يقول آلهتنا خلقت الجبال مثلاً أو الشمس أو القمر ، فلم يستطيعوا الردّ رغم كفرهم وعنادهم .

والحق سبحانه في الرد عليهم يبين لهم أن المسألة لا تقف عند عدم قدرتهم على الخَلْق ، إنما لا يعرفون كيف خُلِقُوا هم أنفسهم : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

وفي قول الله ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف] دليل على صدْق القرآن ومظهر من مظاهر إعجازه ، فقد أخبرنا الحق سبحانه أنه سيُوجد مُضلون يضلون الناس في مسألة الخَلْق ، ويصرفونهم عن الحق بكلام باطل .

وفعلاً صدق الله وسمعنا من هؤلاء المضلين مَنْ يقول : إن الأرض قطعة من الشمس انفصلتْ عنها ، وسمعنا مَنْ يقول إن الإنسان في أصله قرد .. الخ ، ولولا هذه الأقاويل وغيرها ما صدقت هذه الآية ، ولجاء أعداء الإسلام يقولون لنا : أين المضلون الذين أخبر عنهم القرآن ؟

فكأن كل كلام يناقض ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ .. (١١)﴾ [لقمان] هو كلام مُضل ، وكأن هؤلاء المضلين - في غفلة منهم ودون قصد - يؤيدون كلامَ الله ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

ونجد هذه المسألة أيضاً في سنة رسول الله ﷺ ، حيث يطلع

علينا من حين لآخر مَنْ ينكر سنة رسول الله ويقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما كان فيه من حلال حللناه ، وما كان فيه من حرام حرمناه .

وعندها نقول : سبحان الله ، كأن الله تعالى أقامكم دليلاً على صدْق رسوله ، فقد أخبر الرسول عنكم ، وعما تقولونه في حَقِّ سنته ، حيث قال : « يوشك رجل يتكيء على أريكته ، يُحدَّث بالحديث عني فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه »[1] .

ومعنى : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] أي : مخلوقاته ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] ولن نطلب منك خَلْقاً كخَلْق السماء والأرض والجبال ، ولا إنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات ، بل اخلقوا أقلّ شيء في الموجودات التي ترونْها ، وليس هناك أقل من الذباب : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] بل وأبلغ من ذلك ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

ثم يختم الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١) ﴾ [لقمان] أي : ضلال محيط بهم من كل اتجاه ، والضلال المبين المحيط لا تُرْجى معه هداية ، فلن يهتدي هؤلاء ، وما عليك إلا أنْ تصبر على دعوتك يا محمد حتى يُبدلك الله خيراً من هؤلاء ، ويكونون لك جنوداً يؤمنون بك ، وينصرون دعوتك . وقد كان .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/١٣٢) والترمذي في سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة (١٢) والدارقطني (٤/٢٨٦) في سننهم . من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ(١) ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾

الحق سبحانه آتانا قبل أنْ يخلقنا ، وآتانا بعد أن خلقنا بالمنهج ثم وَالَى إلينا بمواكب الرسالات التى تحمل إلى كل بيئة المنهج الذى يناسبها ، وقبل أن يخرج آدم عليه السلام لتحمُّل عبء هذه الخلافة أعطى الله له تجربة ، هذه التجربة مفادها أن يحافظ على منهج ربه فى (افعل) و (لا تفعل) وأن يحذر كيد الشيطان .

وقد مرَّ آدم بهذه التجربة البيانية قبل أن يجتبيه الله للنبوة وكثيرون يظنون أن عصيان آدم جاء بعد أنْ كُلِّف بالنبوة فيقولون : كيف يعصى آدم ربه ، وهو نبى والنبى معصوم ؟

ونقول : نعم ، عصى آدم ربه ، لكن قبل النبوة ، وهو ما يزال بشراً عادياً ؛ لذلك قال سبحانه فى حقه : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [طه]

---

(١) كان لقمان عليه السلام عبداً حبشياً نجاراً . قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه الإمام أحمد فى الزهد وابن أبى شيبة وغيرهما . وقال سعيد بن المسيب : إن لقمان عليه السلام كان أسود من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة . أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم . أورد السيوطى هذه الآثار فى الدر المنثور (٦/٥٠٩، ٥١٠) . وقال القرطبى : هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح . قال وهب ابن منبه : كان ابن أخت أيوب . وقال مقاتل : ذكر أنه كان ابن خالة أيوب . انظر تفسير القرطبى (٧/٥٢١٦) .